الباب الثانى

منهج البحث فى التحليل النفسى

إن مناهج البحث فى التحليل النفسى تعتبر وسطا بين الطريقة التأملية القديمة وبين الطريقة التجريبية الحديثة .

ففى الطريقة القديمة كان البحث فى علم النفس ينبنى على التأمل الباطنى [١] وحده ، فكان الباحث يلاحظ مايدور بنفسه من الحالات النفسية ويحاول أن يحللها وأن يربطها بأسبابها ونتائجها ، ويستخرج منها مايعتبره أساسا للتفسير والتعليل ، وكانت النتيجة أن تعرض علم النفس لأن تكون حقائقه مبنية على الفحص "الشخصى" [٢] مع ما يلازم ذلك من اختلاف النتائج باختلاف الباحثين ، وظل يسير على هذا المنهج حتى بدأ التجريب يأخذ طريقه إلى علم النفس رويدا رويدا حتى ثبتت قدمه عندما أسس "فنت" [٣] معمله الشهير فى ليبزج بألمانيا فى أواخر القرن الماضى وحج إليه العشرات ممن اشتهروا بعد ذلك وأسسوا معامل مماثلة فى أمريكا وأوربا .

وقد وجد علم النفس فى هذه الأداة الجديدة وهى التجريب مايزيد حقائقه دقة ويرفع من شأنه بين العلوم الأخرى ، ولذلك فقد زادت أهمية التجريب فى علم النفس وتنوعت وسائله وأصبح يعتمد على القياس والإحصاء .

أما التحليل النفسى فقد نهج لنفسه منهجا وسطا ، لاهو بالتأمل ولاهو بالتجريب .

والوسيلة الأولى التى اتبعها أصحاب التحليل فى بحثهم هى استقصاء الحوادث الماضية عند المريض فى أثناء التنويم المغناطيسى ، ولكنهم سرعان ما هجروا التنويم — وحسنا فعلوا — لما هو مصطبغ به فى أذهان الناس من صبغة هى أقرب إلى أعمال السحرة والمشعوذين ، ولما يحيط به من غموض ورهبة ، ولجأوا إلى التحليل النفسى . والتحليل النفسى فى واقع الأمر نوع من التأمل الصريح العميق يدور حول أخص ما يمس حياة الشخص من الشئون ، وهو

---

(١) Introspection (٢) Subjective

(٣) W. Wundt

يحتاج إلى أن يرسل الشخص نفسه إرسالا مطلقا — وهذا الإرسال المطلق يحتاج إلى الكثير من الوقت والتدريب — فيذكر لطبيبه كل ما يجول بخاطره ، وتستمر عملية " الإفضاء " هذه مدة طويلة .

ووظيفة المحلّل النفسي أن يضع أصبعه على تلك العناصر من تجارب المريض التي يتوقع أنها تكون أسس اضطرابه النفسي . وكلما تبيّن عنصرا منها ، طلب إلى المريض أن يزيد في كلامه عن هذا العنصر بالذات ، وسرعان ما ينكشف له مالم يكن ينتظر ، وهكذا حتى يصل في النهاية إلى أن يكشف العناصر الفعالة في حالة المريض .

فاذا كشف هذه للمريض بدوره وعرّفه الجانب الخفي من قصة حياته ، وألقى النور عليه ، تحسنت حال المريض واستطاع أن يواجه الحياة بنفس أكثر هدوءا واطمئنانا .

هذه هي قصة كل تحليل نفسي ، وهي نفسها قصة التحليل النفسي "كعلم" . فمجال البحث هو مجال العلاج النفسي ، وما يكتشف من الحقائق إنما يكتشف أثناء استخدامه للعلاج ، وليس على المحلّل رقيب ، وليس هناك ضمان مباشر لصحة استنتاجاته غير النتائج التي يحصل عليها .

وقد كان لعبقرية فرويد الفذة ، وإكبابه على العمل ، ووفرة إنتاجه ونفاذ بصره ، الفضل كل الفضل في أن جعل هذا العلم يقف على قدميه ، ذلك أن فرويد جعل من النتائج الاكلينيكية التي وصل اليها قاعدة لتفسير السلوك الإنساني عامة ، ولو أنه اقتصر على اعتبارها " وسائل علاجية " أو " فروضا عملية[1] " لظل حياته يعالج المرضى ، أو على الأكثر لأصبحت مدرسته مدرسة علاجية لا أكثر . والواقع أنه لو اقتصر على ذلك لما وجد المعارضة والنقد اللذين وجدهما إذ خرج بنظريته إلى المحيط الواسع لعلم النفس بدل أن يقصرها على المحيط الضيق للعلاج .

وقد أخرج فرويد نظرية التحليل النفسي كما أخرج دارون نظرية التطوّر نتيجة لملاحظات عديدة شاملة ، بحيث صعب على معارضيه تفنيدها بالجملة ، لأن الشواهد والأدلة بالغة من الكثرة مبلغا يجعل هذه المحاولة فوق الطاقة .

---

(1) Working Hypothesis

وقد وجد فرويد كما وجد داروين الكثير مما يؤيد نظريته فى ميادين جديدة لم تكن ضمن الدائرة التى عمل فيها أول مرة .

وقد لايرتاح الناس إلى نظرية فرويد كما لم يرتاحوا الى نظرية داروين ، ولعل الإنسان لايمكن أن يرضى عمن يطلعه على حقيقة أصله البعيد أو القريب ، وخصوصا إذا كان هذا الأصل مما لا يفاخر به . ولكنهم يجدون فى كلا النظريتين حيوية فائقة ، وقدرة على الاتساع والامتداد ، وعلى تناول الكثير من الظواهر المستحدثة ، وتفسيرها على نفس الأساس العام ، فكما أن داروين وجد من علم الحفريات ، وعلم التشريح ، وعلم الأجنة ، ومن النبات والحيوان مايؤيد النظرة التطورية ، فقد وجد فرويد فى الأحلام ، وفلتات اللسان ، وفى سلوك الأطفال والمتوحشين ، وفى سيكولوجية الفن والجمال ، وفى سيكولوجية الجماعات وغيرها ما استطاع تفسيره بدون أن يدخل تعديلا على نظريته الأساسية مما زاد هذه النظرية تأييدا وثبوتا .

فنظرية فرويد إذن مثل نظرية داروين ، التى قيل عنها مرارا إنها مما لايمكن إثباته أو نفيه بنفس البساطة التى نثبت أو ننفى بها تقريرا علميا محدودا ، وماذلك إلا لأن كلامنهما تشمل تفسيرا واسع المدى لمجموعة شاسعة من المظاهر المستمدة من ميادين متعدّدة ، ولكن الحقائق والمشاهدات تشير اليها إشارة لانستطيع تجاهلها .

وكما أن نظرية داروين قد جمعت شتات علوم الحياة تحت مبدأ واحد فكذلك نظرية فرويد قد جمعت شتات المباحث المتعلقة بالنفس البشرية تحت نظرية واحدة .

وكلاهما فى الواقع من الوجهة العلمية من نوع الفروض(١) ولكنّ كلا منها فرض شامل ، فاللاشعور والجنسية والحيل اللاشعورية ومناطق العقل الخ كل هذه فروض للتفسير وقيمتها فى أنها تزودنا بأساس متماسك مستقر لتفسير الحياة النفسية .

(١) Hypothesis

ولكن ذلك ليس معناه أن النظرية لا يوجه اليها النقد ، بل بالعكس فقد نُقدت هذه النظرية كثيرا ويمكن أن يلخص النقد الموجه اليها فيما يلى :

(١) إن علماء التحليل النفسى يكوّنون فيما بينهم شبه "فرقة" أو "طريقة" يأخذ فيها واحد عن واحد ، ولا يعترفون لأحد خارج محيطهم بأنه قادر على أن يُضيف أو ينُقص من نظريتهم ، فهم وحدهم القادرون على ذلك ، والمبدأ الذى يبنون عليه ذلك هو أن الشخص الذى لم يحلَّل تحليلا نفسيا يكون عرضة للخطأ فيما يتعلق بمباحث التحليل النفسى ، لأن ما تخفيه نفسه من "العقد" قد توجه ملاحظاته واستنتاجه وجهة بعيدة عن الصواب . وذلك يستلزم بطبيعة الحال أن علماء التحليل النفسى لا يخطئون ، لأن الخطأ فى مذهبهم ليس مجرد هفوة تأتى نتيجة الصدفة ، بل هو أمر "تعمدى" من جانب اللاشعور .

وذلك هو السبب فى أن النقد بينهم قليل ، والتعديل فى آرائهم يسير ، ومعنى ذلك أيضا أن طريقة البحث غير ميسورة إلا لنفر قليل اتخذوا هذه الصبغة "الطائفية" فحلّلوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم .

(٢) وعلاوة على ذلك فإن بحوثهم تجرى فى عياداتهم بين جدران أربعة ، ومآل الصواب والخطأ فيها إلى ما يصوره المعالج ، وعلى ذلك فمن العسير "مراقبة" البحث أو "تقنينه" .

(٣) ثم إن الحقائق التى تُكتشف عن طريق بحث حالات الشواذ من المصابين بالاضطراب العصبى أو العقلى لا يصح فى نظر الكثيرين تعميمها على العاديين من الناس ، فربما كان هناك فرق أساسى بين الشخص العادى والشاذ .

(٤) وهناك نقد آخر يعتبر أخطر من هذه جميعا ، وهو أن المسألة يدخل فيها الكثير من الإيحاء ، فهناك إيحاء من المعلم الأول (فرويد) إلى تلاميذه ، ومن تلميذ إلى تلميذ ، وقد ثبَّت هذا الإيحاء المتسلسل ، اشتراط التحليل الذى سبق ذكره فى المشتغلين بالتحليل ، ثم إن هناك إيحاء من المعالج لمرضاه وهذا الإيحاء ذو شطرين : الأول منهما عام ، لأن من يذهب للعلاج عند محلل نفسانى يعلم من مبدأ الأمر طرفا من نظريته ، وبذلك فهو يتأثر فى اتجاه هذه النظرية ، فإذا

أنى للمحلل بدأ الإيحاء الخاص يعمل طردا وعكسا بينهما ، وبذلك قد تكون النتائج مجرد سراب خادع لا حقيقة له .

وعلاوة على ذلك فان معظم أصحاب التحليل النفسي لم تسبق له دراسة علم النفس العام ، وعلى ذلك فان تفاهمهم مع سائر علماء النفس كان متعذرا ، خصوصا وقد اتخذ معظمهم موقفا من التعالى والكبرياء فسّره الكثيرون على أنه مداراة لضعف الحجة وعدم الوثوق من النفس .

وقد يجد المدافع عن التحليل النفسي ما يقوله ردا على معظم هذه الاعتراضات ولكن الردود الجدلية ليست بذات قيمة كبيرة فى هذه الحالة .

وواقع الأمر هو أن التحليل النفسي قد وضع فى أيدينا نظرية كاملة للنفس الانسانية فى مختلف حالاتها . وأن الباحث قد أصبح — وفى يده سلاح هذه النظرية — يستطيع أن يفسر بواسطتها جميع أنواع السلوك ، من أساطير الأقدمين ، إلى حياة عظماء التاريخ ، إلى ملاهى الأطفال ، وقصص الأدباء ، وحياة البدائيين ، ثم هو يجمع بين العادى من الناس وذلك الذى يعانى اضطرابا نفسيا بسيطا ، وبين المصاب بالمرض العقلى ، فى نظرية واحدة .

أما ما ينسب إلى علماء التحليل النفسي من أنهم يكوّنون " فرقة " فهو صحيح إلى درجة ما ، ولو أن حدة هذه الظاهرة بدأت تقل منذ أخذ طلاب الجامعات يدرسون التحليل النفسي إلى جانب مذاهب علم النفس الأخرى .

وقد حاول الكثيرون أن يُجروا ما يصح أن يسمى تجارب تؤيد نتائجها التحليل النفسي ، ونجح البعض فى تأييد بعض نظرياته ، ولكن الطريق طويل جدًا ولا شك فى أنه لن يكون من السهل الوصول إلى نهايته .

والخلاصة أن منهج البحث فى التحليل النفسي ليس منهجا تجريبيا ، وعلى ذلك فحقائقه ليست فى تلك المرتبة من اليقين التى تبلغها حقائق علم النفس التجريبى ، ولكنه أيضا ليس منهجا تأمليا بالمعنى القديم . وهو يعتمد فى قوته على قدرته على التفسير الواسع المدى لمختلف ميادين النشاط الانسانى .